أضواء على معركة ممر الجديدة أو جديد بوغاز

الدكتور محمد مصطفى الأعظمي
جامعة الرياض ـ كلية التربية

في العدد الأول من مجلة الدارة مقالة قيمة كتبها الدكتور محمد سعيد الشعفي بعنوان « دراسات في تاريخ الدولة السعودية »

لقد اعتمد الدكتور الشعفي في بحثه على كثير من الوثائق الرسمية التركية التي لم تكن في متناول الباحثين من قبل • كما استفاد من بعض المخطوطات التي لا تزال محفوظة في المكتبات في الخارج • هذا الجهد العلمي أضفى على المقال طابعا أكاديميا • الا أن هناك عدة نقاط استرعت انتباهي وهي خاصة بمعركة ممر الجديدة •

اعتمد الدكتور في تصوير تلك المعركة على ما ذكره محمد البسام في كتابه « الدر الفاخر في أخبار العرب الأواخر ، وكان المؤلف ضمن القوات السعودية في هذه المعركة ـ حسب زعم ابن البسام ـ لذلك يعد من شهود عيان معركة ممر الجديدة ، أو الخيف كما يطلق عليها البسام • كذلك اعتمد الدكتور على ما ذكره محمد علي باشا وطوسون باشا في تعليل هزيمتهم في هذه المعركة • لا اعتراض عندي على صحة نسبة هذه الوثائق الا انني أجد نفسي مضطرا الى عدم تصديق محتويات بعض هذه الوثائق ، ومنها أمور ذكرها ابن البسام عن سير هذه المعركة •

سأذكر هنا ما دار في هذه المعركة حسبما ذكره فناتي الايطالي الذي كان جنديا في جيش طوسون باشا وكان قد اشترك في معركة ممر الجديدة ثم نناقش الاختلافات الموجودة بين رواية ابن البسام وفناتي من جهة وكذلك بين أقوال طوسون باشا وفناتي من جهة أخرى بغية الوصول الى الحقيقة ان شاء الله •

معركة ممر الجديدة حسب رواية فناتي الايطالي

يقول فناتي : بعد الاستيلاء على ينبع مكث الجيش المصري هناك مدة ثلاثة شهور ، ثم تحرك نحو ينبع البر Cara Lambi (١) في تتبع الوهابيين بعد أن تركت قوة كافية هناك ·

لقد تجمع السعوديون في القرية وبذلوا قصارى جهدهم لتحسين وضعهم وتقوية مركزهم لكنهم جروا الى المعركة وكانت الهزيمة من نصيبهم ، نتيجة لذلك أصبح عدد كبير منهم تحت رحمة المنتصر ، وكان هؤلاء على الأغلب أصحاب الأراضي الذين لم يرغبوا في أن تفسد أراضيهم ومزارعهم · وقد قبل ذلك منهم طوسون باشا ووعدهم بالدفاع عنهم وأكرمهم ببعض الهدايا · بينما فر بعضهم وتحصنوا بالجبل وكانوا يراقبون الوضع من هناك لكنهم كانوا موضع الهجوم المستمر من قبل قواتنا والتي كانت تستولي على نسائهم وحيواناتهم · لكن غالبيتهم تجمعوا وتحصنوا في نقطة هامة جدا وهي سهلة الدفاع ، ألا وهي نقطة ممر الجديدة Jadead Bogaz واستعدوا لمقاومة عنيدة مستميتة ·

في هذه الفترة عسكرت القوات المصرية حول قرى ينبع البر لكنها كانت في وضع غير مريح · كانت المنطقة مملوءة بالعقارب وتسببت في موت كثيرين حتى كان بعض الجنود يفضلون المبيت على رأس النخيل بدلا من الخيام · كما كانت هناك حشرات مؤذية أخرى · وكان الجو حارا ، لذلك أصبح الوضع سيئا · لاحظ طوسون باشا أن أي تأجيل في المعركة يمنح العدو فرصة ثمينة لتقوية مركزه وتحصين موقعه ، لذلك قرر أن يطردهم على الفور من ذلك المكان المحصن او يجرهم للحرب ، لأن بقاءهم وتحصنهم واستيلاءهم على تلك المنطقة يمكنهم من التحكم على الطريق المؤدي الى المدينة المنورة ويقضي على كل أمنيات الجيش المصري وتطلعاته للوصول اليها · لأن ممر الجديدة شعب ذو حصانة طبيعية نادرة Is a defile of very uncomwon natural strength وعرض الشعب في بعض الأماكن لا يسمح لمرور أكثر من عشرة أشخاص في آن واحد بينما يرتفع جبل عال ذو انحدار شديد في كلا الجانبين بحيث يمكن لعدد قليل من الناس مقاومة الجيش بكامله ·

---

(١) يذكر المؤرخ الفرنسي ميتغن اسم هذا الوضع Janbo de Terre بينما يذكره علي بك باسم Yanbea en Nahal كما ذكره Bankes

كان هناك ما لا يقل عن ٢٥٠٠ « سعودي » تجمعوا للدفاع عنه · ولو أن وصولهم كان هناك حديثا لكنهم استفادوا من كل دقيقة من أوقاتهم استفادة تامة ، فقد بنوا متاريس مرتجلة على شفا الجبل ترتفع علو الصدر من الحجارة المفككة ، بحيث تحميهم عند اطلاقهم للنيران ولا ينكشفون لبندقيتنا ·

نظرا لطبيعة المنطقة فمدفعيتنا لم تكن ذات فائدة اطلاقا ، لأننا لم نكن نستطيع استعمالها وان استعملناها فلن تؤثر عليهم · هذه العوائق لم تكن غائبة عن بالنا ، لكن كل تأخير يكون في مصلحة هؤلاء بحيث يزيد عددهم ، لذلك حدد يوم قريب للتحرك من ينبع البر · وفي اليوم المحدد قبل أن نتحرك من ينبع البر خطب طوسون باشا في الجيش خطبة بليغة بين فيها أهمية ممر الجديدة وضرورة ابعاد العدو من تلك المنطقة ، لأن المهمة بكاملها تتوقف على هذه النقطة · اذ بدون الاستيلاء عليها ليس هناك أمل مطلقا للوصول الى الحرمين ، الهدف الذي لأجله خرجنا من بيوتنا ووصلنا الى هنا · وقد أثبتنا جدارتنا في ينبع وينبع البر · واذا غاب عن اعيننا لحظة واحدة أهميته فلا يمكننا أن نعد أنفسنا مؤمنين ولا نكون جديرين بالاحترام المعطى للجيش المصري · وذكر أنه تسلم خطابا من أبيه محمد باشا يثني فيه على انتصاراتهم السابقة ويذكر فيه ابتهاج الناس بانتصارات الجيش المصري · ثم قال طوسون : وعلى هذا كم يكون مسيئا ومؤسفا اذا أفسدتم كل هذا بتصرفاتكم في المستقبل وهدمتم كل ما بنيتموه من المجد وقضيتم على آمال الناس وتوقعاتهم وتطلعاتهم · اذن ليس أمامنا الا ان نتقدم ، ونتقدم في طريقنا الى النصر حتى نصبح محرري المدينة حقيقة لا اسما ·

ونظرا لضخامة العدد وعدم وصول صوته الى كافة الجيش كان العساكر يرددون خطبته ليسمع الجميع ، وكان لها تأثير بليغ جدا ·

بدأ بعد ذلك التحرك على الفور ·

يقول فناتي : قطعنا مسافة طويلة في اليوم الاول ومشينا في اليوم الثاني أكثر من ذلك ووصلنا مساء ذلك اليوم الى بدر Bedrionion حيث يستريح الحجاج عادة يومين أو ثلاثة ولكننا لم نمكث في تلك القرية ولا ليلة ·

ولقد تحركنا من بدر بعد منتصف الليل ووصلنا الى ممر الجديدة في وضح النهار ، وبدأنا بنصب الخيام في الأراضي السهلة المحاطة بالجبال العالية ·

يقول فناتي : قبل أن ابدا بسرد تفاصيل المعركة أود أن أذكر الاحتياطات التي اتخذها قائدنا الشاب قبل الخوض بمعركة مصر الجديدة .

لقد كان هناك عدد كبير من المراكب الصغيرة مرتبطة بحملتنا . وكانت هذه المراكب راسية على الساحل في انتظار تحركاتنا وامدادنا بالمؤن ما بقينا في ينبع أو ينبع البر لكن عندما تقرر ذهابنا الى المنطقة الداخلية أمرت المراكب للتحرك الى مبرك Mobrek وهي منطقة ساحلية تبعد ثلاث ساعات أو أربع عن مكان المعركة، بحيث يمكن اللجوء اليها في حالة الانهزام أو أية مشكلة طارئة أخرى ، اذ لم تكن هناك قرية واحدة خلفنا كان يمكننا اللجوء اليها في حالة التراجع .

لذلك أوقفت كل التحركات العسكرية في مصر الجديدة حتى تصلنا الأخبار عن طريق مخابراتنا بوصول السفن الى المكان المحدد . ولم تكن هذه الخطوة ضرورية لحل مشكلة التراجع فقط ، بل كانت ضرورية أيضا اذا اضطررنا الى البقاء في المعركة مدة أطول مما كنا تصورناه ، لأجل تموين الجيش . وصلتنا الاشارة بوصول المراكب وبدأنا بالاستعداد . وكنا نرى العدو أمامنا على الجبلين في عدد كبير . وكأنهم كانوا ينظرون الينا من الأعلى بازدراء واحتقار ، وكأنهم واثقون بانتصارهم .

ثم خطب طوسون باشا مرة أخرى خطبة حماسية عظيمة وبين فيها أنه يشترك معهم في المعركة كجندي عادي وسيكون في صفوفهم كأحد الجنود لا كقائد الجيش .

أعطيت الاشارة في اليوم التالي لبدء المعركة . وبدأت المناوشات وقد أسفرت بخسائر اكبر في جانبنا . وكان ذلك بسبب موقعنا الطبيعي المكشوف . واستمر الوضع هكذا ثلاثة أو أربعة أيام ثم تقرر التخلي عن هذا التطور من القتال لعدم جدواه لأنه لا يمكن أن يوصلنا الى نتيجة مرضية على هذا الطريق .

ولقد استعملت هذه الخطة طمعا في سحب العدو للخارج من مكانه المحصن على الجبال . وعندما تبين أنه لا يمكن جرهم الى مكان مكشوف تقرر الهجوم عليهم في معقلهم في اليوم التالي .

قبل طلوع الشمس كان الجميع مسلحين . ونفذ الجيش الأوامر المعطاة له للتقدم عند طلوع الفجر واندفع بكامله بعنف شديد للضغط على الجيش العربي ليجبره على التخلي عن المرتفعات وأطلقت النيران المكثفة من كلا الجانبين . ولم يكن اطلاقي النار على هذا المنوال في بداية الأمر فحسب بل استمر الوضع هكذا .

وكان اضرار جانب على القتال يوازي جسارة الجانب الآخر ، حتى بدأ يظهر أن الوصول الى الهدف مشكوك فيه ·

تقدم طوسون باشا بنفسه وكان ينادي بعض العساكر بأسمائهم وكان يذكرهم بالحرمين وبأنهم من جيوش مصر ·

لم يكن الجيش في حاجة الى هذا التشجيع · على كل يبدو أن تشجيعه جاء بأثر ، اذ تمكن الجيش قبل منتصف النهار من الاستيلاء على بعض المواقع المحصنة رغم الانحدار الشديد للجبل ، وكان ذلك تحت وابل من الرصاص من قبل العدو · لكن هذه المواقع كانت عديمة الفائدة بالنسبة لنا · اذ فتح للسعوديين نقاطا أخرى للقتال ، وكان هؤلاء يمطرون الرصاص من الأعلى ببنادقهم وكانت النتيجة القتل العام لجنودنا هؤلاء ·

في منتصف النهار اصبحت الشمس محرقة لا تطاق وأصبح المستحيل لكلا الطرفين المضي في المعركة وعلى هذا سادت الهدنة لعدة ساعات · وانصرف العساكر وبدأوا يستريحون تحت ظل النخيل الذي كان متوافرا ، ولم يكن النخيل مصدر ظل فقط لهؤلاء الجنود بل كان مصدرا للغذاء أيضا ·

بدأ الجنود يشعرون بالعطش الشديد ولم تتمكن أغلبيتهم من ارووائه ، لأننا لم نكن نعرف أماكن الماء في تلك المنطقة ، لذلك عندما أعطيت للجيش اشارة التحرك في حدود الساعة الرابعة نفذها الجيش البائس وكأنه فرح بذلك ·

لم تكن النيران في بادىء الأمر شديدة ولا مؤثرة كثيرة ، ربما كان ذلك بسبب الارهاق أو لأمر آخر ، لكنه بدأ التحمس يظهر بعد فترة · وأصبح القتال أكثر ضراوة مما كان عليه في أول النهار · وفي الواقع فان ضراوة الحرب وكثرة الضحايا تفوق البيان · واستمر القتال ، لكنه اتضح بعد غروب الشمس بفترة أن الوصول الى الهدف لا يزال مشكوكا فيه ·

كان قد مضى من الليل ساعتان فاذا بنا نجد أنفسنا على الطريق دون أن نعلم السبب ، أهو ذعر مفاجىء ، أو نكبة حلت بنا ·

كان هناك الهرب وكان هناك التعقب ولكن بالفوضى والارتباك حيث لم يكن من الممكن تمييز شيء من آخر · وقد قتل بعض كبار الوهابيين في وسط جيوشنا من قبل الوهابيين أنفسهم ، اذ لم يكن من الممكن التفرقة فيما بيننا وبينهم وكان يتساقط عدد كبير منا على كل خطوة ·

لقد وجد طوسون البقية الباقية من جيشنا التي رجعت معه الى المعسكر غير قابلة للدفاع نهائيا ضد عدو يعرف كل شبر من الارض ، بينما لم يكن أمامنا أي خندق أو أي نوع آخر من التحصينات · لذلك بقي هؤلاء مدة بسيطة هناك تكفي لاحراق المعسكر والخيام متخلين بسبب استعجالهم صندوق القوات المسلحة Military Chest ولم يبق للناس أمل الا في السرية الصغيرة المرابطة في مبرك ·

ثم تحدث فناتي عن طريقة هربه ووصوله الى مبرك وما لاقى في الطريق من المتاعب · الأمر الذي لا يهمنا هنا كثيرا ·

هذا ما ذكره الجندي الايطالي الذي حارب مع الجيش المصري ، وكلامه ليس خطابا رسميا ، لكنه ما ارتآه ·

دعونا ننظر الآن سير المعركة في كتابة ابن البسام كما نقل عنه الدكتور الشعفي ·

يقول ابن البسام : « ثم جهز الملك الأعظم سعود بن عبد العزيز عساكر ما يقوم بحقها قايم ، وأمر ابنه عبدالله فيهم ، وأنفه الى ملاقاة الوزير المذكور حتى نزل بموضع من مواضع الحجاز غربي المدينة المقدسة ، اسمه الخيف · فنزل عبدالله بعساكره ، وأقام به منتظرا قدوم الوزير اليه با اهبته (كذا) ، وساير قبايل الحجاز واليمن وغيرهم تبعا لعبدالله ، ولا والله تغلب عليهم صاحب مصر عن ضعف منهم أو جبن بل خيانة من العربان ورضى من ساكني البلدان ، فساق الوزير عساكره الى الوهابي في سبعة آلاف . فلقيه الوهابي بأربعين ألف مقاتل · قال المؤلف : وأنا منهم ، وقد حفر الوهابي على عسكره الخنادق وعمل المتاريس في ثلاثة أيام ، حتى توجهت السبعة آلاف اليه ، فأخذ الحرب بينهم ثلاثة أيام لم يجد عسكر الوزير مدخلا الى عسكر الوهابي ، لأجل أن السهل خندق والجبل مترس ، فضاقت الأرض بما رحبت على الوهابي وعساكره ، وكان مسعود بن مضيان المذكور ما يأمن الوهابي أن يخون عليه ، فلما نفذت ذخائر الوهابي وأوازعه (٢) ، واحتاج الى رجوع النفس ، بعث علي بن مضيان من مكان يبعد عنه فيه ، فجاء معه ألف راية ، فلما رأوه عسكر الوزير بهذا العدد ، قالوا : هذا الوهابي الكبير ، يعنون سعود ،

---

(١) مجلة الدارة ، المجلد الاول ، العدد الاول ، ص ٢٩ ·

(٢) كذا في الاصل ولعله الصواب وأرزاقه ·

والذي في أهل نجد ولده عبدالله ، فأدبر عسكر الوزير ممشا ثلاث ساعات على موضع يقال له بدر » (٣) .

وينقل الدكتور من « رسالة بعث بها طوسون باشا الى والده يعلق على هزيمته بقوله : انه بالاضافة الى محاربة سعود ومتانة واحكام مضيق الجديدة الذي لم يحسب له حسابا ، فانهم لم يحزموا أمرهم كما يجب ، فقد توجهوا ارتجالا دون امعان النظر فيما ينبغي عمله ، فقد حدث ما ظهر من التخلف والتأخر » . (٤) .

ويعلق محمد علي باشا على هذه الهزيمة بقوله : « ان انتصار ٢٠٠ من الخيالة على خمسة آلاف كان مدعاة للغرور والطمع لدى طوسون باشا ومن معه ، فسبب ذلك انهم أرادوا أن يلحقوا موسم الحج ، ولذلك فانهم وضعوا في حسابهم أن يقطعوا المسافة بين الخيف والمدينة المنورة بالسرعة الممكنة ، فاكتفوا بأخذ كميات محدودة من العلف والطعام والماء والذخيرة ، ولم يتخذوا الحيطة في حمل المزيد حتى اذا تجاوزوا بدر وبلغوا ممر جديدة فوجئوا بحشود القوات السعودية « فأخذوا بالمباغتة » (٥) .

المقارنة بين كلام ابن البسام وغيره من المؤرخين بصدد هذه المعركة :

١ ـ يتفق فناتي الايطالي ومينغن الفرنسي وكتابات طوسون باشا وكذلك تعليقات محمد علي باشا بأن الحرب الفاصلة كانت في ممر الجديدة ، بينما ابن البسام لا يعطينا وصفا دقيقا عن مكان المعركة ، بل قد يفهم من كلامه أن المعركة كانت في الأراضي السهلة ، أو على الأقل لم يكن للجبل أهمية كبيرة في المعركة خلافا لما وصفه الأخرون ، وانا أرجح أن المعركة بكاملها كانت في ممر الجديدة .

٢ ـ النقطة الثانية :

يقدر فناتي عدد « الجيش السعودي » بـ ٢٥٠٠ تقريبا ، وشيخ الحويطات الشيخ نصر شديد يقدر الذين كانوا مع الأمير عبدالله بن سعود بخمسة آلاف من الهجانة والخيالة والمشاة وشيخ الحويطات هذا هو المكلف بمراقبة التحركات السعودية وكان تقديره المذكور قبل معركة ممر الجديدة بعدة أيام ، بينما يقدر

---

(٣) المصدر نفسه ص ٢٩ .

(١) المصدر نفسه ص ٢٩ .

ابن البسام بأن عددهم كان اربعين ألفا ، وهو ثمانيـة أضعاف تقدير الشيخ نصر وستة عشر ضعفا من تقدير فناتي ، وأرجح أن الجيش السعودي لـم يكن يتجاوز خمسة آلاف · لأن هذا التقدير قريب من تقدير فناتي · ويمكن القول أن تقدير فناتي لم يكن دقيقـا بل قدر أقل ممـا كـان الجيش السعودي لعدم معرفته بالدقة التامة ، لكن يصعب علينا أن نوافق على تقدير ابن البسام ، وعلى الأغلب تقدير شيخ الحويطات ، وهو عربي أصيل مـن الجزيرة وشيخ القبيلة وكان ببدر ، وفي الوقت ذاته كان عينا للجيش المصري يكون تقديره أقرب الى الصواب ، ولا يستبعد اذا كان هو بنفسه قدر أكثر قليلا ·

في ضوء هذه الملاحظات تبدو تقديرات ابن البسام مبالغا فيها كثيرا ·

٣ ـ قول ابن البسام : فادبر عسكر الوزير ممشى ثلاث ساعات على موضع يقال له بدر غير دقيق · لأننـا نعلم مـن وصف فناتي بأن طوسون باشا والجيش المصري كلهم هربوا الى مبرك ولجأوا الى السفن التي كانت في انتظارهم هناك ·

فان كان الأمر كذلك ، بأن الجيش السعودي لم يكن اكثر عددا مـن الجيش المصري وكذلك لم يكن مسلحا مثله ، كما انه لم يكن يملك السفن والبواخر ، اذن في هذه الظروف هل كان من المستحسن أوهل كان من الممكن تعقب القوات السعودية للجيش المصري ؟ ربما لم يكن كذلك · وعلى هذا ما أورده الدكتور من الملاحظة في عدم ملاحقة القوات السعودية لجيش طوسون تتطلب ـ عندي ـ اعادة النظر ·

٤ ـ ما قيمة كتاب ابن البسام ؟

يذكر ابن البسام انه كان شريكا في المعركة ، وعلى هذا يجب أن يكون لكلامه مكانة كبيرة لدى الباحثين ، ولكن تقديره للجيش السعودي ووصفـه للمعركة يدل على عدم دقته ، ان لم يكن على عدم اشتراكه ·

زد على ذلك التعبيرات التي استعملها في كتابته تتطلب التريث في الحكم عليه مـن أمثـال :

فساق الوزير عساكره الى الوهابي ··
فلقيه الوهابي بأربعين ألف ··
وقد حفر الوهابي على عسكره الخنادق ·
فضاقت الأرض بما رحبت على الوهابي وعساكره ··· الخ ·

لأن كلمة « الوهابي » لم تكن تستعمل من قبل أصحاب الدعوة السلفية ، بل هذا الاسم أطلقه عليهم أعداؤهم أيام دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، لذلك استبعد استعمال هذه التعبيرات من قبل رجل يدعى انه كان يحارب في صفوف الامام ابن سعود . من الجائز ان يقال انه اشترك في المعركة دون ان يكون قد تشرب روح السلفية ولذلك استعمل هذا التعبير . لكن ماذا نقول في كلامه : « فضاقت الأرض بما رحبت على الوهابي وعساكره ... » كيف نقول هذا وكان النصر حليفه . وقبل أن ينتصر كان يقود جيشا أكبر من الجيش المصري بستة أضعاف ـ حسبما ذكره ابن البسام ـ فكيف ضاقت عليه الأرض ؟ ومهما يكن من أمر فانه لا بد من دراسة نقدية لشخصية ابن البسام ، وكتابه لاعطائه ما يستحق من التقدير والتوثيق .

٥ ـ لم يكن طوسون باشا غافلا عن خطورة المعركة ولذلك رتب أمور السفن وهي محملة بالمؤن لتمده اذا اضطر للبقاء أكثر أو تحميه اذا اضطر للهرب . كما انه لم يترك جيشا كبيرا لا في ينبع ولا في البر بل اصطحب معه أكثر جيشه . وكانت له عيون وأعوان حتى من بعض القبائل كما رأينا في قضية شيخ الحويطات . لذلك فان قوله انه لم يأخذ الاحتياطات الكافية غير صحيح .

أما النصر فقد كان من نصيب من كان يدافع عن عقيدته .

وما النصر الا من عند الله .

٦ ـ ما جاء في تعليق محمد علي باشا على الهزيمة فهو تبرير غير مقبول .

اذ لم يشترك في معركة بدر أو في أية معركة من قبل الجيش السعودي وعدده خمسة آلاف مقابل ٢٠٠ خيالة من الجيش المصري ثم كان النصر حليفا للجيش المصري والهزيمة من نصيب الجيش السعودي .

لذلك ما قاله محمد علي باشا بأن انتصار ٢٠٠ من الخيالة على خمسة آلاف كان مدعاة للغرور والطمع لا يبدو صحيحا .

على هذا يمكن القول بأن طوسون باشا استعد للمعركة تماما وكان قد خطط لكافة الاحتمالات ومعه جيش مدرب يفوق خصومه عددا وعدة ، لكن النتيجة لم تكن في صالحه ، فقد انهزم أمام جيش قليل في العدد ضعيف في التجهيز لكنه قوي في الايمان ، ومن ينصر الله فلا غالب له ...